الفصل الأول

حديث القاصِّ[1]

فرغ الناس في مسجد الرقَّة[2] من صلاة العشاء الآخرة، فتنفَّلوا[3] ما طاب لهم التنفُّل، ثم دَلَفُوا[4] إلى حيث كان أبو داود الحِمْصِيُّ مستندًا إلى سارية من سوارِي المسجد، يقصُّ القَصص، ويُرغِّب في الجهاد، ويروي من أنباء المغازي والفتوح ما يُحمِّس الجبان، ويشدُّ العزم، ويستلبُ ألباب الشيوخ وقلوب الشباب …

وكان أبو داود هذا قاصًّا واسعَ الرواية، عذبَ الحديث، لطيفَ الإشارة، قد تتبَّع أنباء المغازي والفُتوح منذ أول عهد العرب بالفتح، فأتقنها حفظًا وروايةً، وتمثيلًا بالقول والإشارة ونَبْرِ الصوت، حتى ليحسبُ كلُّ من سمعه يقصُّ أنه شهِد بعينيه، وشارك بسيفه في كل معركة من معارك الفتح، فلم يتخلَّف عن واحدة!

وكان رجلًا في الأربعين، لم يطعن في السن، ولم تُثقِل كاهله السنون، قصيرًا بطينًا مُعتجِر العمامة، قد أرسل لحيةً تضرب أطرافُها على بطنه، فما يراه أحد في منظره ذاك، ويستمِع إلى حديثه مُسنِدًا إلى الرواة من أبطال الفتح، إلَّا ظنَّه شيخًا عميقَ الجِذر، بعيدَ

---

[1] انظر التمهيد.

[2] الرقَّة: بلد من بلاد الجزيرة، على شاطئ الفرات.

[3] تنفَّلوا: صلوا النوافِل، وهي ما بعد الفريضة من ركعات السنة.

[4] دَلَفُوا: مشوا بخشوع.